حول ١٤ سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

أرأيت كيف غيّر (الكورنيش) من الرمل وكيف حكم في حظوظ البقاع ؟! هكذا ساءلت نفسي وبدأت الحديث مع صديق رافقني إلى سيدى بشر في أول سبتمبر نبحث عن دار نتزلها تحت حكم ظروف طارئة — بعد أن هجرت الاسكندرية كمصيف منذ خمس سنوات

وكأن الله يريد أن يقفنا على المزيد من آياته في تطور الكون وأنه جل شأنه قد انفرد بالدوام ، فما تحدثنا حتى دلفت بنا السيارة إلى اليمين تقطع شارعاً ضيقاً قصيراً لم أره من قبل ، قام على أحد جوانبه خلاء وعلى الآخر بناء ضخم يوشك على التمام ، وقد كدت أنكر الربوع وكأنها غير تلك التي قضيت بها الصيف أعواماً ثلاثة متواليات . وما وصلنا آخر الشارع حتى طالعنا منزل يتصل بالماضي بنائه وموقعه اتصاله بذكرياته ، ويجفوه بلونه الجديد ، وبهذا اللون وحده يتقرب إلى الحياة الجديدة وماطرأ على (سيدى بشر)

هذا منزل (لافرلا) ثالث الأبنية بتلك المحلة نزلناه أول مرة منذ تسع سنين يوم كان (سيدى بشر) في الصف الأخير بين المصايف لا تسمع له بينها ذكرا ، فاذا ضمك مجلس مع المقبلين على التصييف شاقك ما تسمع عن (سان استفانو) وفخامة النازل حوله ، وطيب الهواء في (كارلتون) ، وسهولة المواصلات في (سان جورج) ، وتحس كأن البلدية انتمرت مع الزمان القلّب فخيت الأسماء الأجنبية بخير الأمكنة ، وخصت هذه بالعناية البالغة بينما تركت الجهات الوطنية بلا ميزة ، وعطلتها من كل حلية !

غير أني أحسست لأول سكناى ظاهرة غريبة في (سيدى بشر) ، فالرطوبة أقل كثيراً من جميع المحطات . والرطوبة شر ما يرهقني في الاسكندرية صيفاً ، وهذه ميزة تعدل في نظرى جميع المزايا الأخرى . ميزة تغلب أثرها على ما كنت أرى من دهشة حين أذكر بين اخواني أين أقضي الصيف وكأنهم لم يسمعوا بمحطة تدعى (سيدى بشر)

وما زلت أذكر من فكاهات تتصل بهذا المعنى أن المرحوم محمد نافع باشا ، وكان قطباً للحلقة الأولى بالكازينو — وكنا ندعوها المصطبة — كان يدعوني سيدى بشر إذا ناداني اشارة إلى انفرادى بينهم بهذا المصيف ، أو إلى اكتشافي له إذا شئت الحق

و (سيدى بشر) ذاته هو المحلة المزدحمة اليوم ، وهو الكعبة للطبقة التي كانت تنفر منه وتعده شيئاً غير الرمل وشيئاً غير المصيف منذ تسع سنين ، فثم منازل أنيقة على شاطئه الجميل ، وهنا أفواج تختص (البلاج) بخير ساعاتها ، وأفواج أخرى تسارع بسياراتها تتصيد المقاعد الخالية فيما انتثر فيه من مقاه ومجال للسرور

وإذا نظرت إلى (الربوع) وجدتها

تَشق كما تَشق البــلاد وتسعد

أما يوم نزلنا سيدى بشر فلم يكن به غير ثلاثة أبنية وبضعة حوانيت في بناء مستقل — ولم يكن في الجيرة ماينغص إلا تلك الأكشاك الخشبية وقد صفت على نظام في أجل بقعة تشرف على شاطئه ، وقد خصصت لأسر الضباط الانكليز يقوم على حراستها نفر من أولئك الذين استحلوا الكل فلم يعفوا عن الأجزاء

ولم يكن للانجليز أن يختاروا الا خير البقاع ، وأحسن المواقع ، فهذه النقطة السوداء شهادة لسيدى بشر بامتيازه

وقد استتبعت هذه الجيرة الممضة أن يأوى إلى الجوار نفر من أخلاط الدخلاء يبيعون الجنود الخمور وأخرى الحاجات ، يبجلونهم ويختصونهم بخير ماحوت حوانيتهم حتى ليمنعون المصرى ما يطلب بأى ثمن

ولم تكن الحراسة بين المصريين عبثاً ولا ذات مشقة ، فهؤلاء الحراس يودعون كرم الخلق المصرى : المرض والحياة والمال . وينفقون ليلهم في تلك الحوانيت يشربون إلى السكر ، ويسهرون إلى الصبح

***

بعد أسبوعين ، وفي ليلة واحدة انعكست الآية وسمعنا بمختلف الرطانات إشادة بالخلق المصرى والكرم المصرى والنبل الوطنى بين الجزع والفزع مما حدث ، فقد استطاب الجند الضيافة ، وأساغ الشرب مالا يسوغ ، وذاق المختفون من الأخلاط بعض

آثار الاحتلال فى عتادهم وفى أنفسهم ، وشهدنا آية الصبر فى لحظة ، وكسبنا للقضية الوطنية أنصاراً حتى بين الأقداح وفى أحقر الحوانيت

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذبا

* * *

سألنى بكر أولادى ذات صباح لمن هذه الأرض التى يقوم عليها (الكامبو) ؟ قلت للبلدية . قال وماهى البلدية ؟ أجبت تقريباً للمعنى من ذهن الطفل : هى للحكومة . قال وهل يؤدون أجرتها كما أدينا للخواجه (لافرلا) ؟

قلت يا بنى لم هذا الالحاف ؟ وفيم الاعنات ؟ وما أريد أن أبكر بالغصص إلى قلبك . إعلم أن هؤلاء الانجليز دخلوا مصر بحجة الدفاع عن عرش الخديو وحمايته ، ولم يكن ثمة تهديد لعرش ولا هدر لحياة ؛ وما زالوا يجدون فى كل يوم سبباً لأطالة الضيافة ، فهم يأخذون هذه الأرض بلا أجر كما احتلوا البلاد . قال ، لو أننا نشترى منها قطعة صغيرة ونبنى بيتاً صغيراً فلا نؤدى أجرة فى كل عام . قلت : فكرة اقتصادية وجيهة ، ولكن الانجليز ؟ قال سأخرجهم حين أصبح ضابطاً . ألم تقل بالأمس إنك ستدخلنى المدرسة الحربية ؟

قلت : صدقت ! ولقد قلت وأسأل الله إذا امتد الأجل أن توفق لخدمة البلاد ، وأدعو الله لك ولأخوانك بحياة حرة فى جو حر

وأردت أن ينقطع الحديث المشؤوم وعملت على تغيير مجراه فاستعجلته لنخرج على نية شراء بعض ما يلزمه ، وسرنا نقصد محطة الترام فوجدنا حانوتاً مغلقاً وقد تأخر عنى خطوة وانشغل به بصره ، فلما ذكرته بالسير قال : ألم تر ؟ قلت ماذا ؟ قال دكان الخواجه (خ) ، والله يا بابا لقد بكيت أمس إذ قلت لعسكرى البوليس صباح أمس حين وقف صاحب الدكان يحكى له ماجرى — خذ العساكر إلى القرقول فلم يفعل ! !

ساءنى أن يستمر الحديث على هذه الوتيرة وقلت يا بنى لقد تردد الدمع فى مآقى الوزير شريف باشا من قبل حين رأى صفوف الاحتلال فى طريق الخديو من المحطة إلى عابدين ! ولا شك أنهم سيخرجون يوماً بأذن الله ، ولن ترى من ذلك شيئاً ؛ ولقد رأى أجدادك أبشع من ذلك وأشنع ، فقد روى (هنس زوزر) أنهم كانوا يقتلون جرحى المصريين فى التل الكبير ؛ وما زلنا نرى من أحفادهم من يحتمون بهم ومن يثقون . فيوم لا ترى واحداً من هذا الفريق لا ترى على أرض الوطن محتلاً ، ولولاء مالحق القاهرة ذلة ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

دارت الأيام ، وعدت إلى سيدى بشر وفى مكتبى الأول أكتب رسائلى وأشخص بين الفينة والفينة إلى البحر فلا أرى معسكراً يحجب ، ولا علامة تثير الغصص وتذكى الألم ، قلت مع الرسول الأمين عليه صلاة الله وسلامه : « ويعجبنى الفأل »

لعل ما ترى من استنامة للرفاهية أشبه بهذا الطلاء الزائل الذى كاد يغير من منزل (لا فرلا) — لعل الجفوة التى ترى بين رجالنا وشبابنا للمبادىء القويمة أشبه بتلك التى كنا نرى ونسمع عن سيدى بشر منذ تسع سنين ، ولعل ما يحجب عنا محاسن الخلق الوطنى أشبه بخشبات المعسكر التى تكسرت وزالت ، ولعل القوة الخارقة الطارئة التى اعتبرها علماء الاجتماع وأساطين التاريخ ميزة الخلق المصرى حين هب بعد قمبيز ، ومثلت الحكم الاسلامى بالطابع الخاص فى الدول الطولونية والأخشيدية والأيوبية ، وحكمت القومية المصرية فى عهد المماليك ومحمد على ، وحررت البلاد من الانجليز فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، لعلها باذن الله قريب منا ! ولعلها على الأبواب ! ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب !

(سيدى بشر) محمد محمود جهول
المحامى

أخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر
الطبعة السادسة من كتاب :
تاريخ الأدب العربى
فى جميع عصوره
بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات
وهذه الطبعة تقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفاً جديداً تقرأ منها نموذجاً فى هذا العدد والأعداد التالية